تنوع الخطاب الصوفي لدى ابن سبعين

أ٠ طاهر عوض عبدالحميد محمد (*)

المقدمة :

التصوف مدرسة روحية يتربى فيها المسلم على تنقية النفس وتهذيبها حتى تبلغ كمال الفضائل. لذا أصبح التصوف الإسلامي علمًا بذاته كما صار له أعلام يحملون رايته وخطاب له معالمه. وكلما اتسعت هذه المدرسة الروحية ضمت إليها نظريات وعبارات منها ما تطور عبر الأزمان متأثرة بالتراث الإنساني المحيط أو الوافد، ومنها ما تمسك بما كان عليه الأوائل، ولكل طريقته في الوصول إلى الصفاء الروحي ومنهجه الذى هو محل دراسة من كثير من المفكرين .(١)

وكان من بين تلك الاتجاهات التى تأثر بها التصوف في مسيرته التاريخية: الفلسفة والاتجاهات الكلامية. وقد ظهرت مؤلفات تحمل هذا الفكر الصوفي الفلسفي. وتعرض هذا البحث لعلم قد حمل لواء هذا النوع الخاص من التصوف وهو التصوف الفلسفي وهو: ابن سبعين (٦١٤هـ-٦٦٩هـ)، وقد كان له الأثر البالغ في إثراء التراث الصوفي بما كان له من مؤهلات أدبية وعلمية.

لقد مثل الشيخ ابن سبعين اتجاهًا مهمًا في التصوف ألا وهو التصوف الفلسفي؛ لما كان لهذا الاتجاه التأثير الكبير في التاريخ الإسلامي، ولما أفرز من تأويلات عميقة للنصوص، وما انتحاه هذا الاتجاه من محاولة جادة لدمج الفلسفات الأجنبية، والعلوم المنطقية في التصوف الإسلامي أو تصويف هذه المناهج، بل ومجاوزة ذلك إلى تفسير الوجود والميتافيزيقيا.

(*) باحث بمرحلة الدكتوراه، بقسم الفلسفة الإسلامية – كلية دار العلوم جامعة القاهرة.

(١) التفتازاني. أبو الوفا الغنيمي. مدخل إلى التصوف الإسلامي. ط٣. دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٧٩م.

أثر الخطاب الصوفي لابن عربي على مستويات التصوف

١. خطابه للمريدين والعامة

يشبه ابن سبعين المريد –أو السالك كما جاء في بعض رسائله– بالمسافر الذى يقطع الطريق، ولكنه يقطعه إلى الله. ووفقًا له – لكى يقطع هذا الطريق بسلام– عليه أن يخضع لشيخ مريد يدله على أقرب، وأسلم طريق إلى الله.(١)

ولما كان المسافر تعترضه في طريقه إلى الله عقبات، بين ابن سبعين للمسافر تلك العقبات، وأمره بموازنة المآلات، وكيف يزيل تلك العقبات، ففي مضمار الترقية الروحية بمريديه يسلك بهم ابن سبعين طريق الحكماء، والفلاسفة ويلزمهم إياه؛ إذ يرى أنه السبيل الأمثل لتحقيق الكمالات.(٢)

ويرادف بعض تلامذة ابن سبعين بين الشيخ المراد وبين العارف، أو المعلم الناصح الذي يرشد إلى طريق السعادة، ويرى أن السعادة تتحقق به؛ لأنه هو الخبير بالطريق القاصد الموصل للمطلوب بالوجه الأقرب. كذا يرى أنه لابد للمريد من ذاك الشيخ.(٣)

إن ابن سبعين يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فيرى أن محبة المريد لذلك الشيخ المعلم المراد ينبغي أن تكون متقدمة على محبة الأب الجسدي من خلال النسب الحسي؛ لأن الأول: "يدبر الآخرة، ويحض على الله وعلى معرفته"، و "حبيبك من يدبر أمر آخرتك".(٤)

والشيخ المراد المعلم عند ابن سبعين يختلف عن ذلك الذي عند غيره من المتصوفة، فالشيخ عنده هو المقرب، أو المحقق، أو الوارث—كلها عبارات عنده تؤدي لمعنى الشيخ المراد المعلم. وجعل ابن سبعين اتباعه شرطًا في الوصول إلى الله والسعادة. ويرى ابن

(١) ابن سبعين، محمد. رسائل ابن سبعين، تحقيق عبدالرحمن بدوى، الدار المصرية للتأليف. كتاب الإحاطة، ضمن رسائل ابن سبعين، ص١٢٦.

(٢) شرح رسالة العهد لبعض تلاميذ ابن سبعين، ضمن رسائل ابن سبعين ، ص ٩٩.

(٣) المرجع السابق، ص ١٨٠.

(٤) المرجع السابق، ص ١٩١.

سبعين أن الوارث هو الواسطة بيننا وبين النبي–صلى الله عليه وسلم– كما أن النبي واسطة بين الله وبين الوارث.(١)

وعرف المقرب بقوله: "هو عين الخير، وكل الكون، ومالك كل لون"،(٢) ويفسره قوله شارح رسالة العهد بقوله: "القريب إلى الله بهذه الكمالات، والعارف بها، والذي عنده منها نسبة فهو مني ويقرب إلي".(٣)

مزج ابن سبعين فكرة التحقيق والتقريب والوراثة بفكرة الفيض عند الفلاسفة، ولكنه طوّرها بعقيدته في الوحدة المطلقة فرأى أن الكون عبارة عن إحاطات تصل إلى الله، وما الوارث (أو المحقق والمقرب)، والنبي إلا حلقة في تلك الإحاطات من غير مماسة بينما الإحاطة التامة هي لله سبحانه وهي إحاطة روحانية مفارقة.(٤) ودائمًا ما يستدرك ابن سبعين في بيان مفهوم الوحدة حتى لا يتهم بالاتحاد، وإن كان قد وقع إلى حد ما في تأويلات ممجوجة. إذ يقول: "وكل كلام في التحقيق هو بخلاف الحق، أو معنى يخبر عنه، ولا يجتمع معه في الوجود".(٥)

والتحقيق عنده هو تحقيق الوحدة الخالصة التي تكاد أن تعرى عن الوحدة لإفراط إفرادها،(٦) حتى إنه ليرى أنه لا مريد على وجه الإطلاق إلا الله من حيث أن معاني أسمائه وصفاته استدعت الظهور فتسمت بالمريد.(٧)

* * *

(١) شرح رسالة العهد لبعض تلاميذ ابن سبعين، ص ١٨٧.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) شرح رسالة العهد ص ١٨٨. وانظر: دراسة: "أثر النزعة الافلوطينية المحدثة فى التصوف الفلسفي حتى نهاية القرن السابع الهجري"، لنيل درجة الماجستير، للباحث احمد محمود أبو ضيف بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة، عام ٢٠١٦.

(٥) رسالة النصيحة او النورية، ضمن رسائل ابن سبعين ص ٢٤٧–٢٤٨.

(٦) المرجع السابق، ص ٢٤٨.

(٧) رسالة الألواح، ، ضمن رسائل ابن سبعين ص ٢٤٨.